

الإيزيديون نجوا من جحيم داعش لكن حياتهم لم تصبح نعيما في عراق الطائفية والتوترات الأمنية

عدم الثقة في الدولة بسبب عجزها عن بسط الأمن وتحقيق العدالة لمواطنيها

انتهاء سيطرة تنظيم داعش على المناطق العراقية قبل أربع سنوات لا يعني لأبناء الأقلية الإيزيدية التخلص من كابوس غير مسبوق في تاريخهم المعاصر، كما أنه لا يعني أيضا نهاية مأساتهم بالكامل والتخلص من تبعات الحقبة القاتمة التي خلفت لهم أوضاعا اجتماعية وظروفا معيشية لا يستطيعون مواجهتها والتغلب عليها دون مساعدة من الدولة العراقية الغارقة في مشاكلها المعقدة ومعضلاتها المزمنة.

● سنجان (العراق) - مزّت الأقلية الإيزيدية خلال العشرية الماضية باحلك حلقة في تاريخها المعاصر عندما تعرضت مناطقها لغزو تنظيم داعش لدى استيلائه على مساحات شاسعة من شمال العراق وغربه وعانى أبنائها من نساء ورجالا ومن مختلف الأعمار بما في ذلك الأطفال أشكالا بشعة من الإرهاب تراوحت بين القتل والأسر والاعتصاب والاسترقاق.

ورغم أن كثيرين من أبناء تلك الأقلية تمكنوا من النفاذ بسلاسة من "المحرقة" وتسلطت الأضواء الدولية على مأساتهم وحصلوا على اعتراف دولي ومحلي بتعرضهم لإبادة جماعية، إلا أن الماضي الأليم لم يصبح بالكامل خلف ظهورهم بل مازالوا يكابدون تبعاته في واقعهم اليومي المعيش عاجزين عن استئناف حياتهم بشكل طبيعي وضمان مستقبل لابنائهم، فضلا عن الحفاظ على خصوصيتهم الثقافية والدينية، وذلك بسبب عجز الدولة العراقية عن الإيفاء بالتزاماتها تجاههم وتوفير الحد الأدنى لهم من ضروريات الحياة والأمان اللازم لاستقرارهم في مناطقهم.

وإذا كانت وطأة الظروف السياسية والاقتصادية والأمنية والاجتماعية العامة التي يعيشها العراق أشد على الإيزيديين، فإن أوضاع هؤلاء لا تمثل استثناء كبيرا من أوضاع عامة العراقيين الذين يعانون تبعات تجربة الحكم الفاشلة والفاصلة من فقر وبطالة وانعدام للخدمات العامة في كثير من المناطق فضلا عن عدم الاستقرار الأمني.

مناطق الإيزيديين تعج بالاضطرابات السياسية ذات الانعكاسات الأمنية ما يجعلها غير مستقرة وغير صالحة للعيش الآمن

ويتابع "لذلك ليس من المستغرب أن يتالم الناس ويشعروا أنهم قد جرى التخلي عنهم. فأنتم عندما تموت تموت مرة واحدة أما من فقد أحباءه ولا يعرف عنهم أي شيء فإنه يموت في اليوم مئة مرة".

وكانت الحكومة العراقية قد أقرت غير سن فوانين ومراسيم أن ما حدث للإيزيديين هو إبادة جماعية مما يهدد لحصولهم على مساعدات ومعونات بالإضافة إلى إعادة إعمار منازلهم ومناطقهم.

لكن خليل مراد مشو وعائلته لازالوا حتى اللحظة عاجزين عن بناء منزلهم الذي دمره المتطرفون بالديناميت وقد اضطر لنصب خيمة لعائلته قبل تسعة أشهر لتعيش فيها على أمل أن تعيد السلطات بناء بيت لهم.

وهو يقول بأسى "من الصعب حقا أن تعيش في خيمة وأن ترى منزلك أمام ناظريك في حالة خراب وأقل ما نخاف منه هو النعابين والمقاربات التي تختبي تحت هذه الأنقاض"، ليتوصل إلى النتيجة المثيرة للقلق واليأس ويتقاسمها غالبية أبناء الأقلية الإيزيدية ويلخصها مشو بالقول "ليس لدينا مستقبل ولا يمكننا استعادة حياتنا القديمة مرة أخرى. ومن الصعب حقا إنشاء منزل هنا".

صدام الأجدات

ليس فقط نقص الموارد هو ما يعيق عودة الإيزيديين إلى مناطقهم واستئناف حياتهم فيها بشكل طبيعي، أضحت تعج بالاضطرابات السياسية ذات الانعكاسات على الأوضاع الأمنية ما يجعلها غير مستقرة وغير صالحة للعيش الآمن.

وعمد تنظيم داعش بحسب إحصائيات الأمم المتحدة إلى استرقاق أكثر من 6500 من النساء والأطفال وتسبب العنف بتشريد أكثر من 350 ألفا في مخيمات النزوح شمالي العراق. ولا يزال أكثر من 120 ألفا ممن عادوا إلى ديارهم يواجهون مصاعب



حزن إلى آخر العمر

المراء لتهدد مجموعات مختلفة. واعتبر هذا اختصارا لفعالية الحكم بعد الحرب، متسائلا "هل الحكومة مستعدة بما يكفي للسماح بعودة الحياة الطبيعية". وأظهر استطلاع حديث أجراه معهد السلام الأميركي أن ثلاثة وخمسين في المئة من سكان سنجان، وجميعهم عائدون من النزوح لا يشعرون بالأمان في المنطقة، ويعتقد ستة وتسعون في المئة أنهم معرضون لخطر العنف والقتل.

أكثر من نصف سكان سنجان العائدون لا يشعرون بالأمان وتعتقد غالبيتهم العظمى أنها معرضة لخطر العنف والقتل

ومع ذلك لا تبدو البدائل المتاحة أفضل من الوضع القائم بحسب رأي الكثير من الإيزيديين إذ أن ما يقرب من 200 ألف منهم يعيشون في مخيمات نزوح في شمال العراق. ومن تلك المخيمات مخيم شاربيا بالقرب من مدينة دهوك في إقليم كردستان الإيزيدية من أسر داعش ليلى تالو وعائلتها.

وتقول ليلى إنها التقت في المخيم بابنتي أختها شيماء وسهيله بعد أن قضت أعواما وهي مستعبدة جنسيا في أوكار داعش بين سوريا والعراق. وكانت ليلى قد فقدت زوجها عند هجوم قبل بضعة أعوام وكان عمرها آنذاك 25 عاما وتأمل أنه تجده يوما ما ليضم في أحضانها ابنتها الذي استطاعت أن تنقذه مع أخته من معسكرات داعش.

وتؤكد أنه لا يوجد مكان تود العيش فيه سوى سنجان موضحة "لا أشعر بالغربة في مكان من العراق لكن سنجان تبقى أرضنا".

وفيما إذا كانت ستفكر في مغادرة العراق كما فعلت ابنتا أختها اللتان لجأتا إلى أستراليا، تقول "لا يزال لي بعض الأمل بأن تحقق الحكومة العراقية وعدها بإعادة إعمار سنجان وتهئية الظروف المناسبة لعودتنا"، مستدركة بالقول "تريد أن نعيش حياة طبيعية هذا ليس طلبا كبيرا، وتريد فقط معلوصات عن المفقودين وإعادة بناء سنجان.. لقد مرت سبع سنوات ومازلنا نعيش في المخيمات، فإلى متى سيستمر هذا الوضع وإلى متى سنبقى مهجرين في وطننا".

البشمركة الكردية إلى مناطق بشمال العراق كانت قد طردت منها في إطار الإجراءات العقابية التي اتخذتها حكومة بغداد ضد الإقليم بعد أن أقدمت قياداته السياسية على تنظيم استفاء على استقلاله عن الدولة العراقية سنة 2017.

وبعد استعادة سنجان من تنظيم داعش تسرب مسلحو حزب العمال الكردستاني إلى القضاء وأقاموا معسكرات لهم داخله، ما جعل تركيا تشن عمليات عسكرية خاطفة في سنجان بدعوى ملاحقة تلك العناصر.

ومع سياسة التمدد خارج الحدود التي تنتهجها تركيا بقيادة زعيم حزب العدالة والتنمية رجب طيب أردوغان أصبح عدم قدرة العراق على ضبط الجماعات المسلحة على أراضيه ذريعة مناسبة لتركيا للتدخل عسكريا داخل الأراضي العراقية، على غرار ما تقوم به في سنجان وعدد من مناطق إقليم كردستان حيث أطلقت سلسلة من العمليات العسكرية واسعة النطاق داخل الأراضي العراقية دون تنسيق مسبق مع حكومتي بغداد وإربيل.

ولا تزال غالبية الإيزيديين المصابين بصدمة من القتل الجماعي والاستعباد الذي مارسه عليهم تنظيم داعش غير واثقين في السلطات العراقية التي يقولون إنها تخلت عنهم أمام وحشية المسلحين. ويخشون من سيطرة الميليشيات عليهم بما في ذلك الفصائل الشيعية المدعومة من إيران لضعف الحكومة المركزية.

أمل أخير قبل الهجرة

بالإضافة إلى مختلف تلك المشاكل السياسية والأمنية يعتمل صراع طائفي وعرقي في مناطق الإيزيديين مترتب عن حقبة داعش القاتمة حيث يتهم كثيرون من سكان تلك المناطق العرب السنة بدعم التنظيم المتشدد الذي تصادم هؤلاء العرب منذ سقوطه مع الميليشيات الإيزيدية وقتل عدد منهم. وفي نفس الوقت يرفض العديد من الإيزيديين البشمركة جيش أكراد العراق الذين يعتبرون منطقة سنجان جزءا من أراضيهم.

ويقول الخبير في الشؤون العراقية سجاد جواد لوكالة أسوشيتد برس إن الأمم المتحدة ركزت على عودة النازحين الإيزيديين، لكن هذا ليس المعيار الوحيد للنجاح، إذ أن الأمر يتعلق بالخدمات والمدارس والأمن والقدرة على التنقل دون أن يتعرض

لكن الاتفاق الذي ظل تطبيقه يراوح مكانه منذ ذلك الحين أثار حفيظة الميليشيات الشيعية مخافة أن يحدث سابقة في مجال بسط سيطرة القوات النظامية على مختلف مناطق العراق، لاسيما تلك الواقعة بشمال البلاد وغربها والتي خضع بعضها لسيطرة ميليشيات الحشد الشعبي بعد استعادته من تنظيم داعش في الحرب التي دارت ضده بمشاركة الحشد بين سنتي 2014 و2017.

ويفقد الاتفاق الذي نصّ ضمن بنوده على أن يدخل كل ما هو أممي في سنجان ضمن نطاق صلاحيات الحكومة الاتحادية بالتنسيق مع حكومة إقليم كردستان الميليشيات الشيعية العراقية الموالية لإيران ميزة السيطرة على نقطة مهمة من المحور الواصل بين الأراضي العراقية والسورية.

وفي حال نجاح تجربة إخلاء سنجان من الجماعات المسلحة، فإن أصوات المطالبة بإخراج قوات الحشد الشعبي من الأفضية والبلدات والمدن التي دخلتها أثناء الحرب على داعش سترتفع مجددا مدعومة بامتعض الأهالي من سوء سلوك ميليشيات الحشد والعراقيل التي تضعها تلك الميليشيات في طريق عودة النازحين إلى مواطنهم الأصلية.

وعلى هذه الخلفية اصطدم الاتفاق بشأن سنجان باعتراضات قوية من قبل الميليشيات الشيعية والقوى السياسية المرتبطة بها.

وانصبت الاعتراضات أساسا على دور سلطات إقليم كردستان في الاتفاق على أساس أنه يفتح الطريق لإعادة قوات

فبعد القضاء على داعش لا تزال تنتشر قوى عسكرية باجندات مختلفة تخلق أجواء مضطربة، بالإضافة إلى القوات الحكومية العراقية هناك ميليشيات الحشد الشعبي وقوات البشمركة الكردية وعناصر حزب العمال الكردستاني الكردي الذي يعرض وجوده في مناطق الإيزيديين وفي سنجان تحديا لسكان المحليين للغارات الجوية التركية التي تكثفت بشكل كبير في ظل إصرار تركيا على ملاحقة الحزب الذي تصنفه تنظيما إرهابيا في كل مكان بالعراق أملا في اجتثاثه.

وفي محاولة لضبط الأوضاع في سنجان وإنهاء ذريعة التدخل التركي هناك أبرمت الحكومة العراقية في شهر أكتوبر من العام الماضي اتفاقا مع حكومة كردستان العراق لحل المشكلات القائمة بالقضاء الواقع غربي مدينة الموصل مركز محافظة نينوى شمالي العراق.

ونص الاتفاق على ضمان حفظ الأمن في القضاء من قبل قوات الأمن الاتحادية بالتنسيق مع قوات إقليم كردستان العراق وإخراج كل الجماعات المسلحة غير القانونية إلى خارج القضاء وفي مقدمها حزب العمال الكردستاني.

ثمانون مقبرة جماعية في منطقة سنجان عثر على خمسة منها فقط وضمت حوالي مئة وخمسين جثة

